ود أمونة وزيراً اتحادياً [1]

د. محمد عبد الحميد [2]

تتساوق الأحداث وتتفاعل الشخوص بذهول مفرط في رائعة الأستاذ عبد العزيز بركة ساكن (الجنقو مسامير الأرض)، فبرغم أن الحكي الروائي داخل الرواية قد أخذ شكل المباشرة والتصوير شبه الفوتغرافي لوقائع الأحداث، الا أن ذلك لم يُقَلِّل من قيمة الرواية لا من حيث الفكرة ولا من حيث ما احتشدت به من أخيلة صاغها الكاتب باحترافية عالية مكنته من الإمساك بعنصر الإدهاش من أولها إلى آخرها. فالعالم الذي صيغت أحداث الرواية فيه لم يكن ليعالج في أي عملٍ إبداعي إلا بذات الطريقة التي اتبعها الكاتب، وهذا ما أضاف إليها قيمة إبداعية تمرد بها الكاتب على المألوف في طرق السرد الروائي.

إن أهم ما ميز هذا العمل هو القدرة الفائقة التي توافر عليها الكاتب في الاحتفاظ بمصائر الشخوص، فهو يعطي القارئ انطباعاً أنه يسجل سيرة حياته أو فترة منها أحياناً. وأحياناً يبدو كأنما يؤرخ لحقبة تاريخية،

(1) نشر المقال بصحيفة حريات الإلكترونية بتاريخ التاسع من يوليو 2012.

(1) كاتب سوداني.

اقتصادية، اجتماعية وسياسية من خلال أحداث الرواية. فهي تفضح واقعاً معاشاً من خلال ما رآه الكاتب في تلك الأصقاع التي يعمل بها الجنقو في شبه سخرة ذاهلين عن المستقبل حتى يسلّمهم مصيرهم في نهاية المطاف إلى «شجرة الموت» وتذهل عنهم السلطة السياسية التي لا ترى فيهم غير مشروع تمرّد لا يستحق ساعةً أن يعي حقوقه غير أن تدك به الأرض أو يتشرد في أصقاع الأرض لاجئاً مهيض الجناح. وقد أسفر الكاتب عن ملكة طرحها في تضاعيف الرواية بشكل أقرب للاستعراضي أكد بها قدرته الفائقة على التحكم في مصائر شخوصه، فيفاجئ القارئ بخيال آسر يحسد عليه يشابه ذلك الذي يتمتع به غابريل غارسيا ماركيز في معظم أعماله الذي ينزع نحو الواقعية السحرية، حيث يدهش القارئ بنهاية مصير أحد شخوصه بطريقة قد لا تخطر له ببال، وهنا تكمن عظمة الروائي، فمصير «درامان ود أبكر البلالاوي» مثلاً يشابه إلى حدٍّ بعيد مصير «ريميديوس الجميلة» في رواية مائة عام من العزلة وإن اختلفت التفاصيل.

أما مصير ود أمونة أحد أبطال الرواية الحقيقيين فقمة الإدهاش والسحر؛ فهذه الشخصية تعتبر الشخصية الأكثر جاذبية في كل العمل الروائي، فهو كإنسان لا يملك المرء إلا أن يحترمه، إنه شخص اجتماعي متفاني ولا يخلو طبعه من نبل. وفي صداقاته، رغم ما يتميز به من ليونة أو نعومة أنثوية، تجعله أقرب للنساء منه إلى الرجال، فهو محبوب الكل في مجتمعه وبحسب وصف الكاتب (طيع وطائع وسهل التعامل ويمكن إرساله لأي غرض

مهما كان صغيراً، كإشعال سيجارة مثلاً، ومهما كان كبيراً كخطبة امرأة، فلا يشكو ولا يتبرَّم) ص 203. إن القيمة الرمزية التي تجسدها شخصية ود أمونة تحكي حال شخص في واقع لا يجيد فيه العيش إلا من امتلك مواصفات هي في كثير من جوانبها متحققة في هذه الشخصية الفريدة والعجيبة؛ فهي شخصية لا تدرك تماماً حقيقة وضعها النوعي ذكراً كانت أم أنثى... ولدت لوالد لم يعرف عنه الكثير بل لا يكاد أحد يجزم بمن هو وسط العديد من الرجال الذين عاشروا أمه، وتربت مع الأم في سجن لا يكمن أن يوفر بيئة صالحة لتنشأة طفل يافع. يجد نفسه في عالم منعزل عن المدنية والحضارة، ثم يعود ويغرق في المدنية من أكثر أبوابها وضاعة (نظافة الملاين لكبار الموظفين والتجار والنساء الثريات) ص 288 من خلال ما وفرته له الصدفة بعد التعرف على شخص وعده بأن يعرفه على (شخصية مهمة جداً، كبيرةً جداً، غنية جداً، واصلة جداً، وشبقة جداً وإنه إذا توافق معها ستنفتح أمامه بوابات العالم كلها) ص343. ثم بعد ذلك يصبح شخصاً نافذاً نظير ما يقدمه للشخصيات المهمة من خدمات خاصة أغلبها متعلق بالحياة السريرية، ثم القفزة المذهلة التي صار بها ود أمونة وزيراً اتحادياً، وهنا كأنما الكاتب ينصب من عمق هذه الشخصية منبراً للعدالة يحاكم به السلطة السياسية عن ماهية المعايير التي يتم عبرها اختيار من يتسنمون المواقع القيادية، ويتساءل الكاتب بذكاء (كيف حدث ذلك؟ تلك قصة يحكيها أي فرد من الحلة) 361. أو تراه يؤجلها إلى أجل غير معروف بقوله عندما يحكي عن كيفية حصول ود

أمونة لذلك الموقع المرموق يقول (وهي قصة مدهشة سيرويها صديقي في كتابه التوثيقي: ثورة الجنقوجواريات) ص 205، والواقع أن الكاتب قد رواها دون أن يورط نفسه في التفاصيل فكأنما أراد القول إن الوصول إلى موقع الوزارة لا يكون من باب المؤهل أو الكفاءة أو القدرات العلمية والفنية، وإنما من باب » الزبونية» لتلك الخدمات التي يقدمها ود أمونة وما إليها من صلات لا تتعلق بالنظم والمعايير والقوانين. فالصفات التي نثرها الكاتب لود أمونة في طول الرواية وعرضها هي ذات الصفات التي جعلته يصل إلى هذا الموقع رغم أنه (شبه أمي لم ينل من التعليم سوى شهور ضئيلة يسرّتها له العازة في أيام حريتها القلائل)ص.289). إن أهم الصفات التي عرضها الكاتب لود أمونة قد اكتسبها من طبيعة الحياة التي عاشها في طفولته الباكرة حيث (تعلم درسه الأول: الصبر من النمل والخسة من الذباب) ص 286. ثم انتهاز الفرص عندما تلوح له (أوعك يا ود أمونة تخلي الفرصة تفوتك.. أطلع فوق.. فوق.. فوق)ص 205. فالفرصة أو شبه الفرصة التي لاحت لود أمونة هنا هي النقطة الفارقة في حياته التي من المقرر أن تنقله من واقع الحِلة الذي لا يناسبه أو بالأحرى لا يناسب تطلعاته؛ فهو لم يُثبت من خلال الرواية أنه من الجنقو وإن عاش وسطهم، وأنه قليل الاحتكاك بهم، وهذا ما فطنت له منذ الوهلة الأولى زينب إدريس التي قالت له تعبيراً عن كونه لا يشبه الناس في الحلة (إنت أجمل راجل في الحلة دي كلها) (كلهم عفنين ووسخانين وريحتهم ترمي الصقر من السما. الرجال في أسمرا يشبهوا الملايكة.. إنت

مفروض تعيش في أسمرا.. تشتغل باريساتا في أي بار أو فندق هناك، تكسب دهب عديل) ص-320 321. فمع عدم تناغم وجود ود أمونة في ذلك الموقع وما رسمه الكاتب له من صفات تؤكد من طرفٍ خفي أن الصفات والخصال التي رسمها له الكاتب من خلال الوصايا التي جاءته من معارفه وهم يقدمون له الهدايا حين إقباله على وظيفته الأولى بالبنك لن تقوده في نهاية المطاف إلا لأن يكون شخصية في مقام وزير اتحادي، وقد تراوحت تلك الصفات بين (القوالة والسواطة) في وصية الأم له، ووصية والدته (فِش أسرار الناس) وصية أداليا دانيال (التعرصة) ووصية فكي علي (النسنسة الدسدسة والخسخسة) بوشي ووصيتها له أن يترك (الكذب) العازة التي أوصته أن يتمسك بصفة واحدة فيه (الوفاء). كل هذه الصفات التي سردها الكاتب على لسان معارف ود أمونة هي في التقدير النهائي ما مكنته، إضافة الى مهاراته الأخرى، من أن يصير وزيراً اتحادياً. وكأنما أراد الكاتب القول إن حالة ود أمونة ليست استثناءً فيما يشهده المسرح السياسي من حالات الاستوزار التي شَمِلت أطياف عديدة من البشر تتشابه بدرجات متفاوتة مع شخصية ود أمونة مع فارق ضئيل وهو أن الكاتب قد حدد سلفاً المؤهل العلمي لود أمونة، بينما يحرص نظراؤه في الواقع على التأكيد على الألقاب العلمية التي يسبقون بها أسماءهم حرصاً على مكانة أو دفعاً لشبهة الاتهام بالحصول على هذه المواقع من باب الولاءات والعصبيات والمحاصصات.